

منظومة المتاع والزينة والزخرف:

بين منطق الاستخلاف.. وشهوة الاستهلاك

د.هبة رءوف عزت
استاذة جامعية-مصر



يحتاج المرء أن يعيد النظر في معاني المفاهيم ودلالاتها وخرائطها بمنهج القرآن ولفظه كي يستقيم منهجه، لذلك فالنظر في مفهوم الاستهلاك وثقافته وروابطه وشبكاته هو فرع عن أصل، هو «رؤية الحياة».

لعلها: زينة إلى أمد.. فمنذ بدء استقرار آدم وحواء في الأرض كان المتاع لهم زينة.. وأمد. والناظر في كتاب الله يرى معنى المتاع يدور بين المادة والزمن، ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾(البقرة:٣٦).

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾(هود:٣).

والآيات كثيرة في هذا السياق.

لم يحرم الله متاع الحياة الدنيا ولا زينتها، لكنها لن تكون أبدا خالصة من منغصات العيش، فتلك سمة زينة الحياة الآخرة.

وتدور معاني المتاع والزينة مع الشهوات، المال والنساء والبنين، والخيل المسومة والأنعام والحرث، ينفق الإنسان عمره في استهلاك المتع، ويمتعه الله.. إلى أجل.

ولكي نفهم عمق نظر الإسلام لعلاقة الإنسان بكل ذلك، لابد أن ننظر في فلسفة الجسد والنسل والمال والحياة والزمن، وندرك أن استقامة تلك المقاصد لا يتم إلا بميزان الآخرة ويوم القيامة.

وفي قصص القرآن حديث عن نماذج غلب فيها الطغيان على الإحسان، في مثال قارون، وأخرى غلب فيها الطغيان على العمران، كما في نموذج فرعون، وثالثة غلبت فيها الشهوة على العرفان، كما في قصة يحيى، وغيرها من الخرائط التي نفهم من خلالها كيف يتم بناء تصور شامل لعلاقة الإنسان بذاته وبغيره وبالعالم.

ثقافة الاستهلاك التي تنامت في عالمنا الإسلامي لتدخل في تفاصيله هي امتداد لثقافة المترفين التي أودت بأمم فأهلكتها، وهي صيغة من صيغ ثقافة الزخرف التي حذر منها القرآن.. زخرف البنيان وزخرف البيان.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (يونس:٢٤-٢٥).

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام:١١٢).

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف:٣٣-٣٥).

والحق أن ثقافة المتاع والمتعة والزخرف والترف، لا يمكن فهمها بمعزل عن مفهوم القوة ورؤية المجتمع لمفهوم الخيرية، ومفهوم السعادة وتعريف الحياة الطيبة، فحين يكون مفهوم القوة مقترنا بالخيرية يتوازن مفهوم النفع والخير الخاص مع النفع والخير العام.. وتسود عقلية التفكير بصيغة الجمع (كما في حديث: «ما آمن بي من بات شبعانَ وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به»(صححه الألباني)، فتكتسب القوة مقوماتها من الذات والصفات الفردية والمجتمعية، لا مما يمتلكه البشر من سلع ومتاع. وليس في ذلك حض على التجرد والتخلي عن كسب المعايش ولا عمارة الأرض، بل هو وعي بميزان المصالح وفهم لمهمة الأمانة والشهود. لذلك فرؤية الإسلام للمال والمتاع لا تنفك عن منظومة للعدالة تقوم بإصلاح حال النفس وحال المجتمع.. وترى تلك الموازين الدقيقة والمقاصد الواضحة لأحكام الشرع التي تؤسس نفوسا سوية وأمة قوية.

مراكمة الثورة

ولعل أبرز الأيديولوجيات المعاصرة التي انتقدت مراكمة الثروة باعتبارها سبيلا للبغي على الحقوق الاجتماعية هي الماركسية، فمفهوم فائض القيمة وطبقا للتحليل الماركسي فإن السلعة التي يتم إنتاجها؛ بينها وبين المادة الخام فائض في القيمة، أي السعر، وهو الفارق بين قيمتها قبل العمل وقيمتها بعده، ومن هنا يأتي الربح، فإن وجد وسيط بين العامل وحصوله على كامل قيمة الفائض فسيكون هذا الوسيط هو صاحب العمل الرأسمالي الذي يستولي على النصيب الأكبر من فائض القيمة، ويعطي الفتات للعامل الذي يستحق الفائض كله، ومن هنا المطالبة بالعلاقة المباشرة بين العامل وأجره، وتحريره من أبنية الاستغلال التي تجني الربح وتشاطره الأجر دون حق.

هذا تبسيط يكاد يكون مخلا لنظرية ضخمة استفاض ماركس في شرحها في كتابه العمدة «رأس المال»، وغيره مما كتب.. لكنه لا مجال للبيان هنا لضيق المساحة.

قدم ماركس رؤيته للمجتمع المثالي كمجتمع شيوعي تختفي فيه الدرجات والطبقات، فلم ينتبه للدرس الذي تعلمه أفلاطون حين اقترح نفس الحل في دائرة النخبة السياسية، ثم وجد أن نزعات الإنسان الفطرية تتعارض مع تلك الحياة المشاعية. فلا مقاصد تحفظ، ولا غرائز تتفهم، ولا حدود تضع ولا مصالح تحفظ وتصون.

أما الليبرالية فقدمت نظريات فائض القوة التي انبنت عليها مفاهيم التوسع والاحتلال والاستغلال، لذا يقال «الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية» لأنه يعمم الاستغلال عالميا، مستغلا فرط القوة العسكرية مقابل الحاجة الاقتصادية، بما يؤدي لاستغلال واستعباد الشعوب الأخرى. هذا يتم تحت غطاء دور الرجل الأبيض في نشر المدنية بين البرابرة، ولما تهاوى هذا المنطق صار يتم تحت شعارات نشر الحرية والديموقراطية وحقوق الإنسان، وهي قيم محترمة لكنها تفقد جوهرها على يد قوى تطيح بها مقابل الزخرف -قولا وعملا.

ولعل أبرز من كتب في مطلع الألفية منظرا لفرط القوة وفائضها كان ريتشارد هاس، أستاذ العلاقات الدولية ومستشار الأمن القومي الأميركي، والذي تولى لفترة رئاسة مجلس العلاقات الخارجية حين كتب أن أميركا لديها فائض قوة لابد أن تمارسه في العالم، كان يتحدث يومها عن النفوذ.. والناتج كان باختصار حربي أفغانستان.. والعراق، واستمرار صرف بعض القوة في دعم الكيان الصهيوني.

الفائض

ما يلفت النظر هو أن الفائض كمفهوم هو علاقة أيضا بين عنصر حقيقي والموقف من توزيعه، أي حين يكون هناك فائض يصبح السؤال: كيف يتم توزيعه وفي أي اتجاه: فائض القيمة كيف نقسمه؟ ومن هنا تنشأ نظريات العدالة الاجتماعية وسلطة الدولة، وفائض القوة كيف نحسن استغلاله ونتحكم فيه كي لا يتغول؟ ومن هنا تنشأ نظريات العدل السياسي والدولي ومنطق القانون الدولي.

فائض الوهم

لكن هناك فوائض أخرى لم نلتفت لها تسري في الحياة اليومية للشعوب، تكرس ثقافة الاستهلاك وامتلاك المتاع وتعتبره مصدرا للرضا والسعادة والمكانة، وهذا هو: فائض الوهم.

بل الوهم الأكبر هو محض حب التملك.. فقد صرنا نشتري حتى دون أن نستهلك!

فلسفة

هنا يغدو فهم فلسفة الثروة مهما، لكن الأهم منه هو فهم منطق التواصي بالحق والتواصي بالصبر والمرحمة، والنموذج النبوي الذي قام على العطاء والتخفف من أحمال الدنيا، وعينه على الآخرة. لا رهبانية ولا قارونية. فالضغط الاجتماعي والولع بالشكل والمباهاة بالمتاع، هو ثقافة مجتمع يمكن تغييرها ويمكن تكريسها، والإغراء الإعلاني الذي يلح عليك أن تشتري وأن تستدين لتملك، حتى وإن لم تكن تستطيع هو البوابة لمنظومة الربا المعاصرة بكل تفاصيلها.

وبين فائض القيمة وفائض القوة وفائض الوهم السياسي والاستهلاكي، تدور رحى معركة العودة للإنسانية التي افتقدناها، إنسانية تمنح فائض القيمة توزيعا عادلا في قنوات الحياة الطيبة ودروب المجتمع المتكافل، وتمنح فائض القوة مصارف النصرة للمستضعفين وليس زيادة عدد المستكبرين، وتخترق دخان فائض الوهم الذي يملأ فراغات الفعل كي نتحرك لسد الاحتياجات الأساسية، برؤية مجتمعية.

وفلسفة الفائض في القرآن تتأسس على الفضل، فالفائض في الإسلام ليس نتاج استغلال، بل هو فضل الله يؤتيه من يشاء ببركة في الرزق، يستتبعها فضل بين العباد، تواصيا بالخير وقياما بالاستخلاف – فضل أمرنا الله به في كل معاملاتنا – من الديون، للطلاق، للتواصي بالإحسان والحض على توجيه الفائض للخير: إنفاقا مما جعلنا مستخلفين فيه، من فضل مال أو جهد، ونهوضا بما جعلنا مستأمنين عليه من فضل قوة، وحضا على عدل أمرنا الله به تنفق في الأمر بمعروفه والنهي عن منكره، فضل الوقت فلا يغدو وقت فراغ أبدا، أو صدقة هي حق الله في المال بعد الزكاة، بإنفاق فائض المال على المحتاج، تفكيرا بصيغة الجمع وزهدا في التباهي بثوب الشهرة وموبايل الشهرة وسيارة الشهرة وأثاث الشهرة، وعبورا لفجوة الوهم الاستهلاكي بتحري الإنفاق فيما نحتاج.. ويلزم.. ويصلح.

الفوائض يقابلها فوارغ، أما الفضل فشكر للنعمة، ودوران مع المقاصد ودفع للمفاسد... ودرء للوهم، وقيام بالشهادة.

طبائع

طبائع الاستهلاك، وطبائع الاستبداد، فوائض الثروة والقوة والوهم، لها انعكاساتها في السياسة والاقتصاد، فالاستبداد يتحرك في فراغ يخلقه تراجع الناس عن ممارسة حقوقهم والدفاع عنها، فيملأ بالقوة مساحات الاجتماع والسياسة، لا يكتفي بالحكم والجبروت، بل يخلق ثقافة تستخف بالقوم فيطيعونه.. كما ذكر القرآن.

من هنا كان من أهم الكتب التي رصدت هذا التوازي بين نظم الاستبداد وثقافة الشعوب المستبد بها كتاب طبائع الاستبداد للكواكبي، الذي توفي رحمه الله مع مطلع القرن العشرين. وقد رصد أنواع الاستبداد التي تسري في الأمم، منها استبداد القوي بالضعيف، واستبداد الجهل على العلم، والنفس على العقل. ورصد كيف يمكن أن يستخدم الدين كغطاء للاستبداد، فقد وجد في التاريخ أن البعض استبد حتى كاد يزعم الألوهية، لذا أول خطوة لإصلاح السياسة تغيير الوعي، وإتاحة المعرفة وسبل العلم، فالاستبداد يرتع حيث يستشري الجهل ويتطلع الناس لقارون.. يا ليت لنا مثل ما أوتي. وقد ربط الكواكبي بين الاستبداد والمال، وخلق نخب حول الساسة، فالمترفون قد يكونون أعداء الاستبداد فكرا، لكنهم أعوانه عملا، فالمال يذل الغني طمعا في الحفاظ عليه، وهو يذل الفقير طمعا في تحصيله. واعتبر الكواكبي التربية مفتاح الاستبداد، فمن ينشأ على الخضوع والهوان في المجتمع يسهل عليه تقبل الهوان في السياسة. ورأى الحل في الأخلاق والتربية وبث الوعي، ثم التغيير في الأنظمة كي تتحقق الحرية عبر آليات الشورى الدستورية.

نقاط التلاقي

ونحن نرى في واقعنا شرقا وغربا كيف تنتشر طبائع الاستهلاك المباشرة، وتغمر الأسواق مساحات الاجتماع، وتضحى هي نقاط التلاقي الأساسية بين الناس ومحور حياتهم اليومية، السوق صار هو المجال العام، لا ليشهد الناس منافع لهم، بل ليدوروا حول ذواتهم المحدودة، ويشبعوا نهمهم وشهواتهم، فينصرفون بذلك عن التمدن والعمران، وتحصيل الحقوق بالنضال و«الدفع»، ويركنون إلى التسوق و«الدفع».. ولو بالدين الآجل.

وحين تكتمل حلقات طبائع الاستبداد وطبائع الاستهلاك، وتتلاقى مع ثلاثية فائض القوة والثروة والوهم التي ذكرتها، يكون الحال هو ما نراه في الواقع العربي اليوم، من تردي في الأحوال وغياب لهمة التغيير وانصراف للشأن الفردي وانشغال بما هو شخصي.

في عالم الاستهلاك كل شيء له تاريخ صلاحية، حتى العلاقات الإنسانية تصبح خاضعة للمنطق الاستهلاكي، هكذا رصد سيجموند باومان أحد أبرز علماء الاجتماع المعاصرين في كتابيه: «الحداثة السائلة» و«الحب السائل» -كل شيء قابل للاستهلاك والاستبدال: من السلعة للجسد للعمل للإعلام للصداقة... وغيرها.

الاستهلاك ليس سلوكا فرديا، إنه منظومة كاملة، والتغيير يبدأ من فك تلك الحلقات واحدة بعد الأخرى. من هنا يبدأ الإصلاح.